الغرافيتيا الطلابية دراسة سوسيولوجية للممارسات الغرافيتية بالفضاء الجامعي

إكرام مونا

جامعة عبد المالك السعدي، تطوان– المغرب

ملخص: تبتغي هذه الدراسة الكشف عن أهم المضامين الغرافيتية المتفشية بالفضاء الجامعي، ودلالاتها المختلفة، ومدى تجسيدها للثقافة الطلابية داخل الجامعة، ومن أجل ذلك تم الاستعانة بتقنيتي الاستمارة والمقابلة، مع عينة قوامها 122 طالب/ة، تم اختيارهم بشكل عشوائي من داخل جامعة عبد المالك السعدي_ كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، كما قمنا بتتبع الممارسات الغرافيتية المستعملة بالفضاء الجامعي لمدة ثلاثة أشهر متتابعة، وتوثيقها بالاعتماد على التصوير الفوتوغرافي، واستخراج مضامينها؛ التي شملت: المواضيع السياسية والنضالية، الحميمية والجنسية، الرياضية، العنيفة...إلخ، وقد ضعت على عدد من الحوامل: الطاولات، الأبواب، الجدران...إلخ، وفي مختلف الأماكن: القاعات، المدرجات، الممرات العامة والهامشية، المراحيض...إلخ.

تجسد الغرافيتيا الطلابية مختلف الإيديولوجيات المنتشرة من داخل الفضاء الجامعي، والتي تعبر _سواء بشكل صريح أو ضمني_ عن هموم هذه الفئة من جهة، وعن طموحاتها من جهة أخرى. كما أنها تمثل المتنفس الأمثل لهذه الفئة، لنشر عدد من الخطابات (سواء أكانت عبارة عن طابوهات في المجتمع أو غيره) التي يتعذر عليه الإفصاح عنها بشكل علني.

الكلمات المفتاحية: الغرافيتيا الطلابية، الفضاء الجامعي، الممارسات الغرافيتية، الثقافة الطلابية.

Student Graffiti A sociological study of graffiti practices in the university space

Ikram MOUNA
university abdelmalek essaad, tetouane- Morocco

Abstract: The purpose of this study is to figure out the most important graffiti contents in the university space, and the extent to which they express the student culture within the university. For this, we relied on interview and questionnaire techniques, with 122 students, who were randomly selected from within The Faculty of Letters and Humanities at Abdelmalek Essaadi University. We also monitored the graffiti practices in the university space for three consecutive months, documented them based on photography, and extracted their contents, which included: Political and Struggle Topics, Intimacy and sexuality, Sports, Violent…etc. Placed on: tables, doors, walls... etc. And in various places: Rooms, amphitheaters, public and marginal corridors, and toilets…etc.

Student graffiti embodies the various ideologies spread within the university space, which express, either explicitly or implicitly, the concerns of this class on the one hand, and its aspirations on the other. It also represents the ideal outlet for this category to publish a number of discourses (whether they are taboos in society or others) that it is unable to disclose publicly.

Keywords: Student Graffiti, University Space, Graffiti Practices, Student Culture.

مقدمة

حظيت الممارسات الغرافيتية باهتمام متزايد من قبل الباحثين من جهة؛ لأنها ظاهرة ثقافية تواصلية حيوية، ومن قبل السياسيين من جهة ثانية؛ وذلك لكونها تحمل وجهين: فمن ناحية

تعتبر فناً يطفئ على الأماكن العامة جمالاً ورونقاً، ومن ناحية أخرى فهي تعتبر تخريباً للممتلكات العامة وعنفاً بصرياً ودلالياً.

تعتبر الكتابات الغرافيتية ممارسة يومية غزت مختلف التضاريس المجتمعية، قام بتوظيفها الفرد للتعبير عن أمنياته ومكبوتاته وأحلامه...تعكس خصائص مجتمعاتها وموقعها. غير أن بداياتها ليست وليدة اليوم، وإنما ترجع إلى محاولات اكتشاف البشر للكتابة، بل يعتقد بعض الدارسين أنها سبقت الكتابة نفسها، حيث نقش ورسم على وسائط مختلفة، مما جعلها تنحدر من "النقوش الاثرية" حسب ألان ميوAlain Milon، أما تيري مارتنThierryMartens فيعتقد أن "الفن الجداري" يعود إلى عصور ما قبل التاريخ، حيث كان الإنسان البدائي يحاكي بيئته المحيطة به، ليعبر عن انفعالاته...إلخ، بتوظيف النقوش والرسوم على جدران الكهوف والمغارات (بوعلام، 2012-2013، ص30-31)، بيد أن حضارة بومباي هي التي عُرفت بكثافة وغزارة لا مثيل لها من الغرافيتيا، وهنا نشير إلى أن مجمل الدراسات التاريخية والاركيولوجية قد ركزت على هاته المرحلة في التاريخ والمقاربة، بينما ظلت المرحلة الممتدة ما بين العصور الوسطى (القرن العاشر الميلادي خصوصا) والقرن التاسع عشر مرحلة غير مدروسة بالشكل الكافي. إلا أن الذي يهمنا أكثر هو القرن العشرين، حيث نُسجل بأنه على مستوى الغرب كانت أمريكا هي المصدر بينما شكلت فرنسا المرجع، وتحديداً كانت مدينة نيويورك مصدراً، بينما شكلت باريس التابع والمرجع. وهكذا ازدهرت الغرافيتيا في نيويورك في بداية القرن العشرين، بينما ازدهرت بفرنسا في الستينات، وتحديداً سنة 1968 مرحلة الثورة الطلابية (شراك، 2004، ص 32).

وجد الممارسون للغرافيتيا في الجدران وسيلة لانتزاع الاعتراف والتعبير الحر عن مكنوناتهم وأفكارهم، وإفراغها على وسائط مختلفة، والتي توحي بـ "قلق اجتماعي" صرف نتيجة الظروف المعاشة، أو لخصوصية الأنساق الاجتماعية (الأسرية، المدرسية...إلخ)، وهذا ما جعل بعضهم ينعتها بـ "فن الطبقات المحرومة والفقيرة". فنجد مثلا: ألاوو بريتانOlowuBritain يعتبر الغرافيتيا استراتيجية للتعبير عن رفض وكسر قيود الأنظمة التسلطية، ووسيلة للمعارضة السياسية على مستوى الأفكار لإسماع صوت المعارضة للمجتمع، لأنها وسيلة اتصال جماهيري فعالة

وسهلة، كما يعتقد ليمن شف Lyman Chaffe، أما بالنسبة لروني باسرونRené Passeron فإنه يرى بأن الغرافيتيا عبارة عن أشكال لفن جماعي، يجد فيه المجتمع المهمش (خاصة بالضواحي) أفضل طريقة للتعبير عن خصوصياته، وملاذً للعيش الثقافي المناسب (بوعلام، 2012-2013، ص 39 -45).

فالغرافيتيا كفعل وممارسة تَجسيد وبلورة للأوضاع المجتمعية التي يعيشها الأفراد، إذ تعتبر اللغة الناطقة بمختلف مشكلات وحالات الأفراد النفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وذلك لكونها تجد مساحة واسعة أثناء الأزمات والثورات والتغيرات على مستوى الأنظمة...إلخ، فتفصح عن نفسها من خلال شعارات مكثفة ورسومات تعبيرية تعكس الظرفية المعاشة. فالمجتمع يُبنى من خلال تراثه الثقافي والحضاري، وبكل ما يضمه من عادات وتقاليد وأعراف متجذرة فكراً وممارسةً، فعلى اعتبار أن الغرافيتيا "منتج ثقافي وحضاري"، فإنها تعكس _بشكل أو بآخر_ مدى تشبع هذه الفئات أو الشرائح بها، وهي حصيلة هذا البعد الثقافي.

شهدت الممارسات الغرافيتية خلال الآونة الأخيرة حضوراً قوياً سواء في الفضاء المفتوح أو الفضاء المغلق، بيد أن هذا الحضور القوي كان نتيجة الكثير من التحولات والتغيرات، إن على المستوى الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي؛ مما يعني أن الغرافيتيا تفصح عن واقع متغير سمته الأساس الثورة والتمرد على القيم والقواعد الاجتماعية والقوانين السياسية...فهذا الخطاب الذي غالباً ما ينعت بكونه خطاباً هامشياً، قد لعب دوراً استراتيجياً في الكثير من الأحداث كالثورات والمظاهرات وغيره، وذلك من خلال عمليتي التعبئة والتواصل. فهي تشمل كل الكتابات والرسوم والأيقونات والصور والتشكيلات، في أي فضاء وعبر أية وسيلة أو أداة.

تعددت تفسيرات الباحثين للثقافة الغرافيتية، التي اعتبرها غريغورسنايدر Snyder Gregory متزامنة مع ثقافة الهيب هوب خلال السبعينات، لتشكل هوية المغرفتين التي غالبا ما تتمحور حول تبجيل وتقديس أسمائهم (Snyder: 2011)، كما اعتبرت نوع من اللغة الخاصة، المشفرة،

تستخدم للتواصل، وإثبات الذات (شراك: 2015) وتعبر عن احتجاج الفاعلين على الظلم والتمييز، لذلك نعتت بالثورة اللغوية/اللسانية (Tournier 2007).

لم تقتصر الغرافيتيا على الفضاءات المفتوحة فقط، بل تجاوزت ذلك وغزت العديد من الفضاءات المغلقة كالسجون والمستشفيات والإدارات والمراحيض العمومية، إضافة إلى حضورها القوي داخل المؤسسات التعليمية، إذ نجدها داخل المدارس الابتدائية والثانوية الإعدادية والتأهيلية، بل أصبح لها حضوراً واسعاً داخل الجامعات، إذ أصبح طالب اليوم يعبر عن آرائه وأفكاره عن طريق اللجوء إلى الجدران والأبواب والطاولات ليمارس عليها حريته، ويفصح عن كل ما يخالجه.

مشكلة الدراسة

تاريخ الغرافيتيا الطلابية ليس بالتاريخ الهين والقصير، وإنما هو تاريخ مليء بالحركية والدينامية التي رافقت عدد من الثورات الطلابية والاحتجاجات التي ساهمت الغرافيتيا بقسط وافر في تأججها، حيث أنها كشفت عن الوجه الخفي والمضمر للمجتمع عامة، والمؤسسة الجامعية خاصة، فهي مقياس موضوعي صامت وخفي للمستوى الثقافي الطلابي.

نظرا لذلك، فقد كان موضوع الغرافيتيا الطلابية من أبرز المواضيع التي _رغم حضورها القوي بالحرم الجامعي_ لم تحظى (بالشكل الكافي) بالدراسة السوسيولوجية العميقة التي تقف على فك شيفرات هذه الممارسات من خلال المقاربة السوسيولوجية. لذا، وقع اختيارنا على هذا الموضوع، حيث شكلت كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمدينة تطوان_المغرب مجالاً للدراسة، من خلال استقطاب عينة من الطلبة من مختلف التخصصات، وكذا توثيق معظم الممارسات الغرافيتية المنتشرة داخل هذا الفضاء.

ومنه، فقد كانت إشكاليات هذه الدراسة كالآتي:

ما دلالات الممارسات الغرافيتية الطلابية بالفضاء الجامعي؟ وما أبرز مضامينها وأشكالها؟ وإلى أي مدى تعكس المستوى الثقافي الطلابي داخل الجامعة؟

أهمية الدراسة

دراسة موضوع "الغرافيتيا الطلابية" يعود أولاً لأهميته العلمية والسوسيولوجيا، نظراً لكون "الغرافيتية الطلابية" تحمل رسائل متنوعة، يمكن قراءتها من مستويات متعددة: اجتماعية، ثقافية، رمزية، جمالية وفنية. بالإضافة إلى أن مثل هذه الممارسات غالباً ما ينظر إليها نظرة دونية، حيث لا تعطى لها القيمة والحمولة التي تستحقها، فيتم تهميشها وجعلها من الهامش المخفي، لذا فرفع الستار على هكذا ممارسات يساهم في فهم أعمق لاحتياجات الأفراد وتوجهاتهم ومشاكلهم...إلخ.

وبالتالي، فأهمية هذا البحث تتجلى أيضا في مقاربته لفئة ليست بالهينة، ألا وهي الفئة الطلابية، التي غالباً ما توصف بكونها الفئة التي تدعوا للتغيير. بالإضافة إلى كون هذه الممارسات تكشف عن الوجه الخفي والمضمر للمجتمع المغربي عامة، والمؤسسة الجامعية خاصة، فهي مقياس موضوعي وصامت وخفي للمستوى الثقافي الطلابي.

أهداف الدراسة

من خلال الإشكالية البحثية المطروحة يمكن إجمال أهداف هذه الدراسة في:

-معرفة أهم دلالات الممارسات الغرافيتية المتفشية في الوسط الجامعي، ومن ثم استخلاص التيمات التي تعبر عنها.
-الكشف عن تلك العلاقات التي تربط بين الممارسات الغرافيتيا والثقافة الطلابية.
-تفسير الممارسات الغرافيتيا الطلابية المتفشية بالفضاء الجامعي.

منهجية الدراسة

بغية دراسة مشكلة البحث وتحليل أبعادها والتأكد من مدى ثبات صحة الفرضيات، اعتمدنا على المنهج الكمي والكيفي معاً، وذلك نظراً لتكاملهما في تناول الموضوع المدروس "الغرافيتيا الطلابية" الذي له علاقة وطيدة بقضايا المجتمع، والممارسات الشبابية عامة والطلابية خاصة،

وباعتباره موضوعاً عاماً وخاصاً، فردياً وجماعياً. كما أن موضوع الغرافيتيا مرتبط بتعبيرات ذهنية ونتاج علاقات وتفاعلات اجتماعية، وعلى هذا الأساس اعتمدنا على تقنية المقابلة باعتبارها إحدى التقنيات الكيفية التي ترتكز أساساً على استنباط ما يصدر عن الناس من أحكام وتوجيهات وتفصيلات وأولويات أو إدراكات اتجاه موضوع ما (القرني: 2008، ص2)، بالإضافة إلى تقنية الاستمارة التي تعتبر من أهم الوسائل البحثية في علم الاجتماع، والتي مكنتنا من جمع معطيات كمية من الميدان، والتي تمنح الفرصة للباحث للمقارنة والقياس...وقد تم تحليل المعطيات الإحصائية باستخدام البرنامج الاحصائي SPSS (الحزمة الإحصائية للعلوم الاجتماعية).

ولتتبع الانتاجات الغرافيتية الطلابية بالجامعة قمنا بتوثيق أهم هذه الممارسات، باستخدام تقنية التصوير الفوتوغرافي لمدة ثلاثة أشهر، وذلك بهدف تحليل بعض مضامينها وفرزها حسب أشكالها ومواضيعها.

-عينة الدراسة

نظرا لصعوبة القيام بدراسة شاملة لجميع مفردات المجتمع المبحوث، قمنا باختيار عينة قوامها 122 طالب وطالبة تم اختيارهم بشكل عشوائي، وقد توزعت على تقنيتين: المقابلات؛ تضمنت 21 فرد، بينما شملت تقنية الاستمارة 101 طالب وطالبة من داخل جامعة عبد المالك السعدي_ كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمارتيل، تم توزيعها حسب الخصائص التالية:

الجدول رقم (1): توزيع عينة البحث حسب متغير الجنس والسن

الجنس		السن		
ذكر	أنثى	19-26	27-34	أكثر من 35
40%	60%	91%	8%	1%

الجدول رقم(2): توزيع عينة البحث حسب متغير التخصص

التخصص (%)							
ع.الاجتماع	الفلسفة	التاريخ	د.العربية	الجغرافية	د.الاسلامية	الانجليزية	الاسبانية
20,8	9,9	16,8	10,9	8,9	13,9	15,8	3

حدود الدراسة

أي بحث علمي تعترضه عراقيل وصعوبات، وعلى الباحث تجاوزها لمحاولة تغطية النقائص، ومن بين الصعوبات التي واجهتنا نجد:

سرعة محو الغرافيتيا، الشيء الذي جعلنا لم نصل إلى مجموعة من المضامين والممارسات والكتابات التي تم صباغتها وإزالتها في وقت وجيز جداً.

نظراً لخصوصية الفضاء الجامعي والتزاماته، فقد كان لابد من اختيار وقت محدد لإنجاز البحث الميداني، وذلك قبل وصول وقت الامتحانات. وبالتالي، فإن ضيق الوقت المحدد للدراسة الميدانية (واحتراماً لخصوصية الجامعة) جعلنا نسارع الوقت في التقاط وتوثيق أهم الممارسات الغرافيتية بالفضاء الجامعي، دون أن ننسى استقطاب عينة البحث التي انصبت عليها هذه الدراسة.

عرض النتائج ومناقشتها

1.دلالات الغرافيتيا الطلابية

الغرافيتيا كهامش

بروز الهامش والانسان الهامشي في أي مجتمع من المجتمعات لم يأتِ بمحض الصدفة، بل إنه ناتج عن السياق المجتمعي، وما أفرزه من واقع متنوع ومتذبذب، لذلك أصبح يفرض نفسه بقوة

على المجتمع، وأضحى يحتل دوراً ريادياً في تحليل الكثير من الظواهر الاجتماعية، خصوصاً تلك التي تخرج عن الإطار العام للمجتمع (العطري، 2000، ص 53). فالهامش يقدم نفسه كنقيض للمؤسسة، كفعل موازٍ لها، إلا أنه لا يتوافق معه في عدد من الاستراتيجيات والمعايير، فهو يتميز بالتغير والتحول، ولا يعرف معنى الاستقرار الذي تشكله المؤسسة. فهامشية الغرافيتيا تتجلى في مستويين أساسيين: المستوى الجينالوجي؛ يتمثل في الوسائل المستعملة والفضاء والزمن...، والمستوى الدلالي (المضمون)؛ يتمظهر في مدى نقده للخطاب المؤسسي (شراك، 2015، ص 46). فهل يمكن اعتبار الغرافيتيا بهذا المعنى مكانها المناسب هو الهامش، أي ذاك المكان الخفي؟

من خلال استطلاعنا للمجال المدروس (كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان) وجدنا أن معظم الوحدات الغرافيتية توجد في هوامش المؤسسة، أي على الجدران غير الظاهرة للعموم؛ كالجدران المحيطة بالمراحيض، وفي الممرات الضيقة بالإضافة إلى تواجدها الملفت داخل المراحيض.

الصورة رقم(1) و(2) و(3): رسمات تشكيلية على جدار الكلية

فالصور أعلاه توجد بإحدى الجدران وأبيات شعرية ورسومات إبداعية، وكذا رسومات جنسية؛ حيث ترسم بعض الأعضاء الجنسية، وقد وضعت هذه الممارسات بألوان باهتة وواضحة، أبرزها اللون الأحمر والأخضر والأسود والأزرق على جدار أبيض. وبغية توضيح هذا بشكل جلي، ندرج الجدول الآتي المتواجدة وراء إحدى القاعات، التي لا يصل إليها معظم الطلبة، نظرا

لانعزالها عن أنظار العامة، فقد اتخذت هذه الفئة منه ملاذاً للإفصاح عما يخالجها، فدونت عليه أقوالاً وعبارات:

الصورة 4: مكان الرسومات السالفة

جدول رقم (3): الغرافيتيا مكانها المناسب هو ذاك المكان الخفي والغير ظاهر للعامة

أوافق جدا	أوافق	أوافق نسبيا	لا أوافق نسبيا	لا أوافق	لا أوافق مطلقا
3%	5,9%	11,9%	25,7%	38,6%	14,9%

من خلال استطلاعنا لآراء المبحوثين والمبحوثات أقر 80 طالب وطالبة؛ أي 79,2% بكون الغرافيتيا مكانها المناسب ليس هو الهامش، فقد صرحت طالبة من شعبة الفلسفة أن تواجد الغرافيتيا في هذه الأماكن الضيقة راجع بالأساس إلى منع المؤسسات لمثل هذه الممارسات، خصوصاً تلك التي تعبر عن قضايا حساسة، وفي بعض الأحيان جنسية، لذا فالمغرفت يكتب في الخفاء. ويضيف طالب آخر من نفس الشعبة أنها غالباً ما تكون مجهولة ويرفض صاحبها أن يترك أي دليل على هويته، كما أكدت طالبة أخرى، ذات السن التاسع عشر، أنه رغم القمع

الممارس على الغرافيتيا ووجودها في الأماكن الضيقة والهامشية، إلا أنها ستظل حاضرة، لأن "كل ممنوع مرغوب فيه" حسب قولها.

كما ذهب 16,8% من المبحوثين والمبحوثات إلى أن معظم الممارسات الغرافيتية تسود في الأماكن الضيقة داخل الجامعة، وتوضيحاً لهذا؛ فالغرافيتيا داخل جامعة عبد المالك السعدي كلية الآداب والعلوم الإنسانية تنتشر في مختلف الفضاءات والأماكن، إلا أنها تتعرض للمحو في حينها ولا تستمر لمدة طويلة، عكس تلك التي تتواجد بأماكن ضيقة ومنعزلة، فهي تستمر لمدة أطول.

الغرافيتيا كخطاب

أضحت الغرافيتيا من أقوى اللغات والخطابات الثقافية في عصرنا، وذلك لارتباطها بالتغير السياسي والإثني والفني للمدينة، وتستخدم على المستوى الفردي لإعادة تحديد المكانة الاجتماعية والسياسية للفاعل داخل المجتمع، حيث أصبحت حلاً منطقياً وإبداعياً للحرمان الذي يعانيه الأفراد في المجتمع، إما على المستوى الجماعي؛ إذ تستخدم الجماعات الفعل الغرافيتي بغية تحديد وتعريف ذاتها بالفضاء الذي تتواجد فيه، أو على المستوى الفردي؛ لإثبات وجود الفرد داخل الجماعة أو المجتمع (بوعلام، 2013، ص 39).

فالغرافيتيا عبارة عن فعل تواصلي بين المغرفت والمشاهد، غير أن هذا التواصل من نوع خاص تبعاً للطبيعة الخاصة للمرسل، والتداخل الموجود بين المرسل والمرسل إليه، وذلك في ظل غياب مرسل رسمي أو مؤسسي (شراك، 2004، ص35). ومن ثم، فإن الخطاب الغرافيتاوي يستعمل اللغة من أجل هدف واحد هو التواصل وتبليغ الرسالة، بعيداً عن الآليات المنطقية لهذه الرسالة، وهكذا يكون الهدف من هذا الخطاب هو تبليغ المعنى التواصلي بأية وسيلة لغوية ممكنة للتواصل (شراك: 2017، ص 139).

الصورة رقم(5): من إحدى الجدران وراء القاعة رقم 20

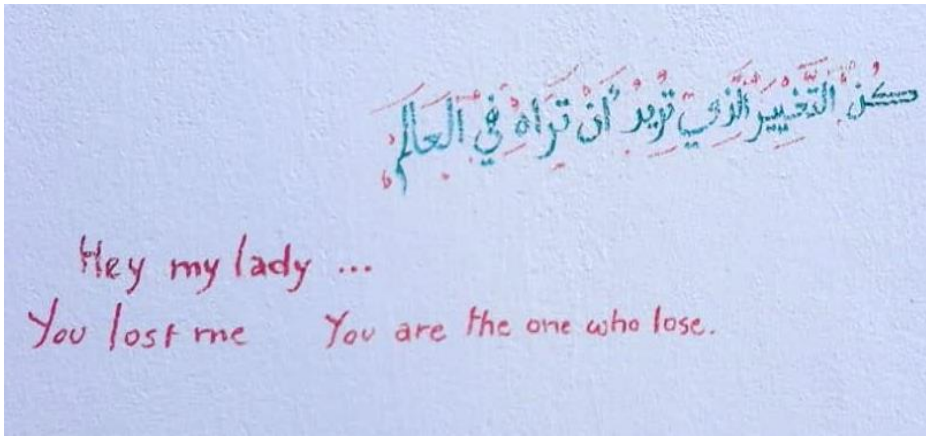

كتب على الصورة العبارة الأولى باللغة العربية الفصحى "كن التغيير الذي تريد أن تراه في العالم" باللون الأخضر الباهت وشُكِلَتْ باللون الأحمر، وهي رسالة موجهة لعامة المتلقين، في حين أن العبارة الثانية دونت باللغة الانجليزية:(Hey my lady...You lost me. You are the one who lose.)؛ وهي رسالة موجهة لشخص محدد، ويبدو من خلال منطوق الغرافيتيا أنها موجهة لسيدة ما، كتبت باللون الأحمر الغامق، وبخط واضح ومقروء، فهي تجسد الشعور بالفقدان وما سينتج عنه من خسران.

أكد العديد من المبحوثين والمبحوثات أن الغرافيتيا لها دلالات معينة ولها لغتها الخاصة، فهي إما أن تستعمل الرموز والإشارات لتبليغ الرسالة المرجوة، أو الكتابة بلغة عامية، أو بلغة عربية فصيحة، أو بلغة أجنبية؛ كالفرنسية والإنجليزية خاصة، فقد صرحت مبحوثة "أ" من شعبة علم الاجتماع، السن 22 سنة، أن "الغرافيتيا تجسد رسالة معينة يبتغي المغرفت الإعلان عنها والكشف عنها ومشاركتها مع العموم، فهي لغة لكل من لم تساعده اللغة المعاشة في الإفصاح عما يريده، لذا يتم اللجوء إلى مثل هذه اللغة الهامشية _إن صح التعبير_"، وتضيف طالبة من شعبة الفلسفة، أن المتلقي وإن كان يراها كخربشات تافهة ولا معنى لها، إلا أن المُرسِل يحمل من ورائها دلالات متعددة، وقد ورد توضيح هذه المسألة في قول الطالب "د"، بأن الطالب إن كتب

بلغة رسمية وتبعا لقواعد معينة، فربما لن يعرفه الكل، عكس إذا كتب بالألفاظ المتداولة، أي بالعامية فسوف يصل صوته لعدد مهم، ففي بعض الأحيان يعبر الشاب بأسلوب "زنقوي"(حسب تعبيره)، ولكن يكون له رسالة مهمة، لذا يجب التركيز على الرسالة بغض النظر عن الطريقة، فهذه الأخيرة المجتمع والمحيط هو الذي يساهم فيها ويحددها.

وأمام هذا الدور التواصلي المهم الذي تجسده الغرافيتيا، وتبلغ من خلالها العديد من الرسائل والقضايا، هل يمكن أن نعتبرها كشكل من أشكال الانحراف؟

الشكل رقم(1): علاقة الغرافيتيا بالانحراف

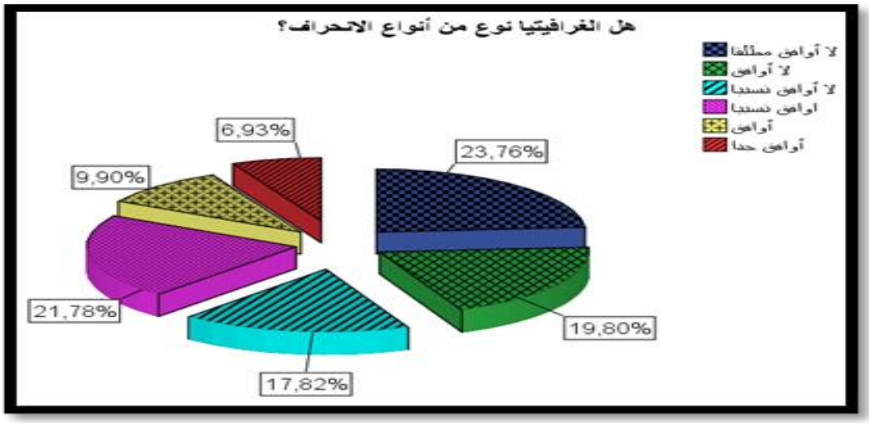

استناداً للأرقام المحصل عليها يظهر أن نسبة مهمة من المبحوثين والمبحوثات يرون أن الغرافيتيا ليست نوعاً من الانحراف، حيث كانت نسبة 23,76% إجابتهم بلا أوافق بشكل مطلق، بينما ذهبت نسبة 6,93% إلى أن الغرافيتيا هي نوع من الانحراف بشكل أساسي.

فالغرافيتيا خطاب متعدد الدلالات والأشكال والتغيرات اللسنية والفنية والتشكيلية والرسوم والأيقونات...إلخ، وتستعمل كل اللغات، فهي تُمارس سواء باليد أو بواسطة أداة حادة أو بواسطة الأقلام، وتستخدم ركائز مختلفة ثابتة (كالجدران) أو متحركة (كالقطارات والحافلات)، وتكسوا فضاءات ومجالات مختلفة؛ مثل: الشوارع والأزقة والبنايات المختلفة (شراك، 2015، ص81).

الغرافيتيا كتعبير عن الذات الفردية والجماعية

وجد الممارسون للغرافيتيا في الجدران وسيلة لانتزاع الاعتراف والتعبير الحر عن مكنوناتهم وأفكارهم، وإفراغها في وسائط مختلفة، والتي توحي بقلق اجتماعي صرف، نتيجة الظروف المعاشة، أو لخصوصية الأنساق الاجتماعية، وهذا ما جعل بعضهم ينعتها بـ "فن الطبقات المحرومة والفقيرة". فهي استراتيجية للتعبير عن رفض وكسر قيود الأنظمة التسلطية، ووسيلة للمعارضة السياسية ولإسماع صوت المجتمع، لأنها وسيلة اتصال جماهيري فعالة وسهلة (بوعلام: 2013، ص40)، والجدول أسفله يوضح هذا الأمر بشكل جلي، إذ أن عدد مهم من الطلبة يعتبرون أن اللجوء للغرافيتيا دليل على عدم وجود قنوات تعبيرية أخرى للإفصاح عن أفكارهم بحرية (أكثر من 60%).

الجدول رقم (4): اللجوء للغرافيتيا يدل على قلة القنوات التعبيرية المتاحة

أوافق جدا%	أوافق%	أوافق نسبيا%	لا أوافق نسبيا%	لا أوافق%	لا أوافق مطلقا%
23,8	24,8	19,8	10,9	15,8	5

فمن بين الممارسات الغرافيتية التي عثرنا عليها داخل الفضاء الجامعي نجد عبارات من قبيل: "عاش الريف فلتسقط الدولة البوليسية" كتبت على جدار معزول وراء إحدى القاعات الغير بادية للجميع، وذلك باللون الأحمر بخط مقروء وواضح، وفي موضع آخر على طاولة إحدى المدرجات (لسان الدين بن الخطيب) كتبت جملة عبارة عن سؤال وجواب "كيف تكسب نفسك في الحياة؟ أن تكسب الحياة بنفسك" فكلها عبارات تعبر عن مواقف وتوجهات شخصية.

فرغم اختلاف وتباين طبيعة الممارسات الغرافيتية وسياقاتها، إلا أنها تطورت في عصرنا بشكل كبير لما اقترنت بها من وظائف عدة، لتتموضع كأسلوب فردي بالدرجة الأولى، ثم جماعاتي وجماعي بدرجة أعلى للتعبير عن خصوصياته الاجتماعية، والسياسية، والثقافية والهوياتية، حيث أضحت كـ "أسلوب تحرري" متميز، تستبق وتلازم أية حركة فردية أو اجتماعية، بغية سماع صوتها للمستهدف (بوعلام، 2018، ص118).

فحينما طرحنا سؤال هل الغرافيتيا تعبر عن الذات الفردية والجماعية كانت الإجابات على الشكل التالي:

الجدول رقم(5): الغرافيتيا كتعبير عن الذات الفردية والجماعية

أوافق جدا%	أوافق%	أوافق نسبيا%	لا أوافق نسبيا%	لا أوافق%	لا أوافق مطلقا%
21,8	30,7	19,8	10,9	10,9	5,9

أقر العديد من المبحوثين أن التعبير عن حرية الرأي من أهم أسباب اللجوء إلى مثل هذه الممارسات، إذ تقول طالبة من شعبة الدراسات الاسبانية أن "الغرافيتيا هي تعبير عن كل ما يخالج الفرد من أحاسيس ومشاعر فهي تعبر عن اهتماماته"، وتضيف طالبة أخرى من شعبة الدراسات الانجليزية بأن "عدم وجود حرية التعبير اللفظية هي التي أدت إلى اللجوء لمثل هكذا ممارسات من أجل تفريغ الكبت الناتج عن العادات والتقاليد وغيره"، وكما جاء على لسان طالب من شعبة الجغرافيا أن "الشعب كاعي (بالعامية)" أي غير راضي على الأوضاع، فهو لا يجد سوى هذه الطريقة للتعبير عن سخطه ورفضه.

وفي مقابل ذلك يذهب طالب من الدراسات الإسلامية إلى أن "الكتابة على الجدران تعبر فقط عن إيديولوجيات صاحبه وانتماءاته، وهذا الأمر لا يفيد في شيء، فالجدار يجب أن يظل في صورة جيدة، فهذه الممارسات تخرب جمالية الجدار والمؤسسة الجامعية عامة".

الصورة رقم (6): داخل مرحاض الإناث

كتب عليها:

I have no idea!

Shat. The faek up!

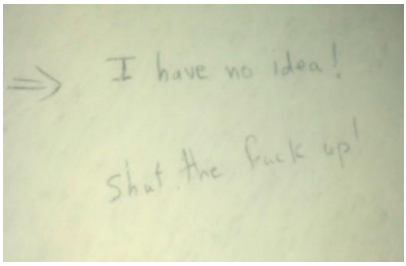

الصورة رقم (7): كتب عليها

Are you drunk enough to miss me?

or do you miss me enough to drink

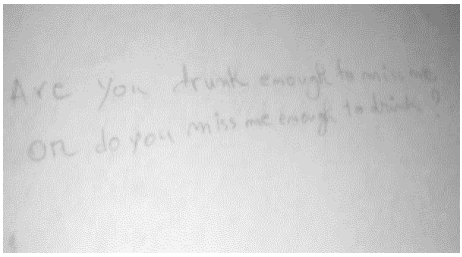

ختاما، فإن الغرافيتيا كانت ومازالت وسيلة فعالة للتعبير عن الآراء والإيديولوجيات، ووسيلة مقاومة المستضعف، إنها "صوت من لا صوت له" بل "سلاح من سلاح له" (بوعلام: 2014، ص33). ومن ثم، يمكن التعامل مع كل غرافيتي باعتباره سيرة ذاتية شخصية وجماعية، يعكس من خلاله المغرفت (le graffeur) بعدا من ذاته ومن مجتمعه.

الغرافيتيا كعنف رمزي

تعتبر الغرافيتيا أسلوب عنف، وإن اختلفت الآراء حول ذلك، كما أنها ملمة بكل المجتمعات على حد سواء، وعلى اعتبار أن العنف "سلوك يؤدي إلى إيقاع الأذى بالآخرين سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة"، فالممارسات الغرافيتية ومهما كان الهدف منها سواء المطالبة بالحقوق المهضومة، أو أسلوب تعبير أو رفض للواقع المعاش، أو فرصة سانحة لرد الاعتبار، فإنها في مجملها أسلوب عنف يعمد فاعلوها إشهاره في وجه العامة عبر ما يكتبونه بوضوح أو بغموض مفضلين هذا الأسلوب على الظهور العلني.

فعندما سألنا المبحوثين والمبحوثات عن: هل يمكن اعتبار الغرافيتيا شكل من أشكال العنف الرمزي ضد الواقع ومؤسساته؟ كانت الإجابات على الشكل التالي:

الشكل رقم (2): علاقة الغرافيتيا بالعنف الرمزي

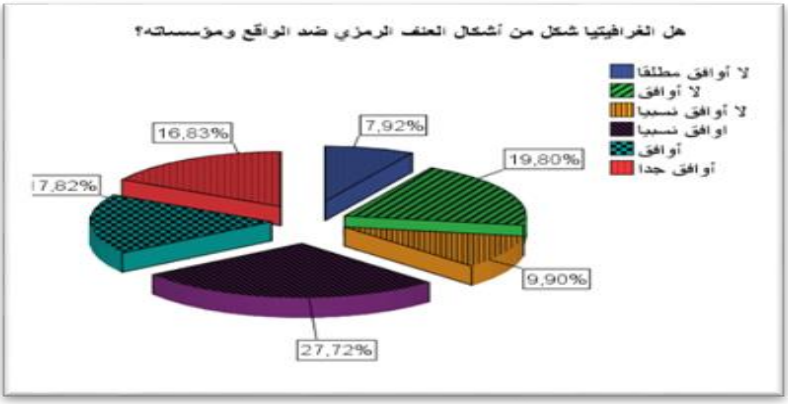

يتضح من خلال استنطاقنا للأرقام المحصل عليها أن نسبة مهمة من المبحوثين والمبحوثات (62,3%) تراوحت إجابتهم بين أوافق جدا وأوافق نسبيا على كون الغرافيتيا هي شكل من أشكال العنف الرمزي، يشيعه الممارس/ة تجاه الأفراد والمؤسسات بمختلف أشكالها وتوجهاتها، كما أنها عنف رمزي ضد قيم المجتمع وثوابته وعاداته المتحجرة بالأساس، في حين يبدو أن نسبة قليلة من هذه العينة كانت إجابتها بلا أوافق مطلقا على أن الغرافيتيا عنف رمزي.

ومن ثم، فإن الغرافيتيا _بالإضافة إلى ما سبق_ ينظر إليها كعنف غير مباشر (رمزي) يمارس ضد مرافق الدولة والمواطنين على حد سواء.

2.أبرز أشكال الغرافيتيا الطلابية بالفضاء الجامعي

الطاغ (الطاك Tag)

يمكن اعتبار الطاكTag قفزة في تاريخ الغرافيتيا، فهو مصطلح معاصر النشأة، أصله أنغلوسكسوني، ظهر لأول مرة في الولايات المتحدة الأمريكية، خاصة ولاية نيويورك (المصدر دائما) في السبعينات، ولقد نشر أول مقال حوله في صحيفة نيويورك تايمز بتاريخ 21 يوليوز 1970، والمقال في مضمونه يقدم حالة شاب من أصول تركية، عرف بتوقيعه المكثف في العمارات وقطارات الأنفاق، ولعل التوقيف هو الذي أثار انتباه الناس، والباحثين أيضا، حيث

تشتق الكلمة، حسب بعضهم، من اللغة المكتسبة الأمريكية والتي تعني التوقيع أو الشعار (شراك، 2015، ص67)،...فمعناه العام (الرسمي) هو "البطاقات les étiquette" التي تلصق على الحقائب، يكتب عليها "اسم" صاحب الحقيبة، ويعني أيضا التوقيع أو الشعار الخاص بشخص معين، يعرفه ألان فيلبو Alain Vulbeau بأنه "كتابة مكررة عشرات المرات لاسم أو لقب أو كنية مستعارة، أو شعار فردي أو جماعي، على الجدران أو ما ناب عنه" (شراك، 2015، ص 173).

الصورة رقم (8) ورقم (9): تجسد غرافيتيا الطاغ

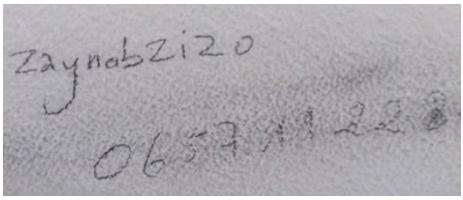

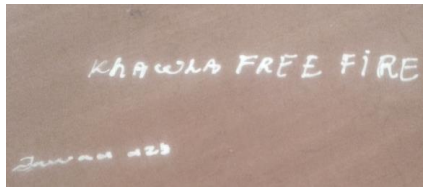

تطغى مثل هذه الممارسات في الطاولات بشكل أساسي، وفي بعض الجدران سواء داخل القاعات أو خارجها، وهذا ما تبين من خلال استفسارها حول نوع الغرافيتيا المزاولة من طرف المبحوثين والمبحوثات، فكانت الإجابات على الشكل التالي:

الجدول رقم (6): أبرز أنواع الغرافيتيا المزاولة من طرف الطلبة والطالبات

خربشات تافهة	رسومات عامة	كتابة الأسماء والحروف	التعبير عن المشاعر	التعبير عن قضية	استعمالها كفن	لا أحد
%7,9	%3	%11,9	%7,9	%9,9	%1	58,8%

من خلال قراءتنا للأرقام المحصل عليها نلمس أن معظم الممارسات الغرافيتية تكون عبارة عن أسماء وكتابة الحروف، تأتي بعدها تلك التي تعبر عن قضية معينة، وذلك نظرا لكون أكثر من نصف المبحوثين 58,4% صرحوا بعدم ممارستهم للغرافيتيا.

الغرافيتيا المعكوسة

أسلوب يعتمد على نفس الدعامات المعروفة في الغرافيتيا، لكن يتم بموجبها تنظيف الملوث (الغبار، الطمي...)، المتراكم على الجدران، خاصة بالفضاءات التي تكثر فيها حركة السير، أو الأشغال العامة. فيتم محو وتنظيف جزء من الواجهة، مع الاحتفاظ بكلمات، جمل، رسومات...تخدم الرسالة المراد تبليغها. يطلق على هذا النوع من الغرافيتيا عدة ألقاب أبرزها: غرافيتيا المحيط، الغرافيتيا الإيكولوجيا، الغرافيتيا المستدامة...إلخ. (بوعلام، 2013، ص 174).

أكد العديد من الطلبة على مدى أهمية هذا النوع من الغرافيتيا، حيث يتم التخلص من كل تلك الغرافيتيات المخلة والملوثة لجمالية الفضاء والمحافظة على غيرها، حيث أقر طالب من الدراسات الإسلامية بكون" هذه الظاهرة تحمل وجهين: فهناك الوجه الإيجابي منها وهي تلك التي تعبر عن قضية أو عن مشاعر ذاتية وغيره ولكنها تكون ذات جمالية وذات رسالة (مثل القضية الفلسطينية)، بحيث تكون مكتوبة بخط جميل تعطي انطباعا جيدا للآخرين، أما الوجه السلبي منها فهي تلك التي تخرب جمالية الفضاء وتكتب على بعض الأماكن الغير مسموحة لمثل هذه الممارسات كجدار أحد البيوت أو في فضاء خاص آخر، إذ تكتب بخط رديء.

ومن خلال استفسارنا عن إشكال متعلق بالانطباع الذي تتركه الغرافيتيا لدى المتلقين، كانت الإجابات على الشكل التالي:

جدول رقم (7): الغرافيتيا تعطي انطباعا سيئاً لدى الناظرين

أوافق جدا	أوافق	أوافق نسبيا	لا أوافق نسبيا	لا أوافق	لا أوافق مطلقا
% 14,9	%11,9	%26,7	%19,8	%22,8	4%

يتبين من خلال المعطيات السالفة أن 46,6% يرون أن الغرافيتيا لا تترك انطباعا سيئا للناظرين، في حين 53,5% ذهبوا إلى أن هذه الممارسات تخلف أثرا سيئا لدى المتلقين والمستقلين لهذه الممارسات.

شكل رقم (3): الغرافيتيا وتخريب الممتلكات العامة

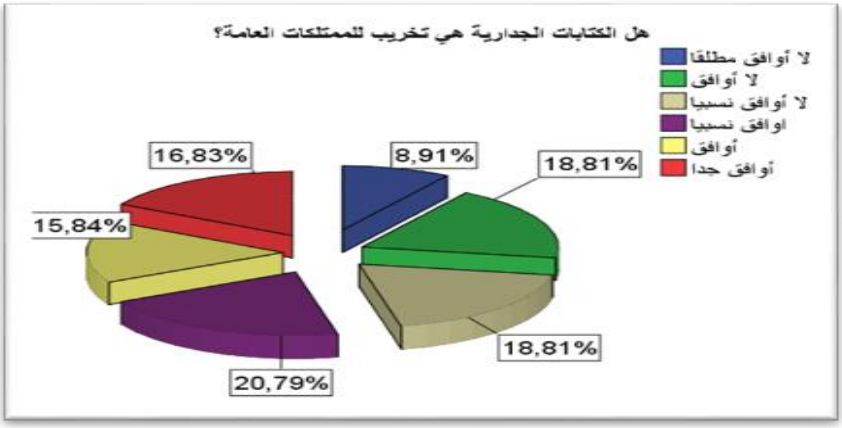

ومن هذه المنطلقات، هل يمكن اعتبار بروز الغرافيتيا المعكوسة دليل على وجود مجموعة من الكتابات الجدارية التي تخرب الممتلكات العامة؟ يبدو أن نسبة 53,4% يعتقدون أن الكتابات الجدارية هي تخريب للممتلكات العامة، في حين أن نسبة 46,5% يرون أنها عكس ذلك.

غرافيتيا المراحيض

نحت المصطلح الانثروبولوجي الأمريكي **ألان دنديز AlaanDundes** لتوصيف نوع من الغرافيتيا الخاص بالمراحيض، وذلك في سياق دراسته حول غرافيتيا المراحيض، والموسوم بـ "Here i si ; A study of American latrinalia".

الصورة رقم (10): من إحدى مراحيض الذكور

كتب عليها: "HOMOSEXUALITY IS RISING

HOMOS ARE HUMANS TOO"

الصورة رقم(11): من داخل مرحاض الإناث

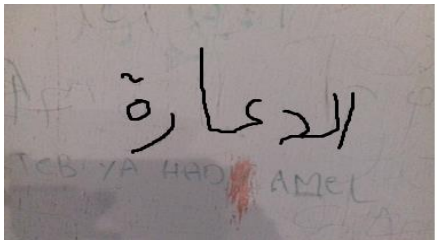

أصبحت غرافيتيا المراحيض من بين أبرز أنواع الغرافيتيا المنتشرة بشكل كبير، إذ نجدها في المراحيض العمومية، كما نجدها داخل مراحيض المؤسسات التعليمية، فهي تعرف حضورا مهما داخل الجامعة سواء تعلق الأمر بمراحيض الذكور أو مراحيض الإناث، إلا انه نلمس اختلاف على مستوى المواضيع بين الإثنين، فبينما نجد في الأول انتشار مهم لغرافيتيا الجنس حيث تكتب عدة عبارات جنسية وترسم أعضاؤه، خاصة العضو التناسلي الذكري، الأمر الذي لا نجد له نفس الحضور داخل مراحيض الإناث. فكيف ينظر لهذا النوع من الغرافيتيا؟

جدول رقم (8): هل غرافيتيا المراحيض ظاهرة عادية؟

أوافق جدا	أوافق	أوافق نسبيا	لا أوافق نسبيا	لا أوافق	لا أوافق مطلقا
% 5	%16,8	%7,9	%9,9	%33,7	26,7%

مما سبق، يبدو أن معظم المبحوثين والمبحوثات يرون أن غرافيتيا المراحيض ليست ظاهرة عادية، حيث شكلت نسبتهم 70,3%، في حين ذهبت النسبة المتبقية إلى أن الغرافيتيا ظاهرة عادية، وقد أقرت طالبة في شعبة التاريخ والحضارة أن" الغرافيتيا الموجودة في المراحيض هي عبارة عن سلوكات غير لائقة، والشخص الذي يمارسها يعاني في نظري من مشاكل نفسية، إذ أن الشخص العادي لا يمارس تلك السلوكات"، ويضيف طالب آخر من شعبة علم الاجتماع أن

وجود غرافيتيا المراحيض دليل على عدم وجود ثقافة وتربية جنسية، لأن الفرد حينما يرسم عضوا أو عملية جنسية بالكامل على جدران أو أبواب المراحيض فتلك طاقة مكبوتة فيه ولم يستطع أن يخرجها إلا عن طريق الغرافيتيا، فهي تبرز بشكل كبير في ظل رقابة اجتماعية متشددة من قبل مختلف المؤسسات.

الشكل رقم (4): غرافيتيا المراحيض باعتبارها ظاهرة تحررية

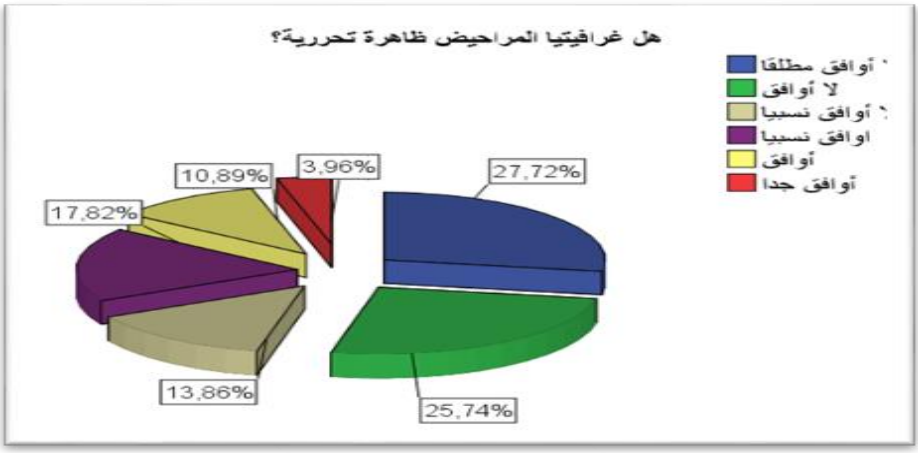

من خلال استنطاقنا للأرقام السالفة يبدو أن غرافيتيا المراحيض ليست ظاهرة تحررية، بقدر ما هي ناتجة عن جملة من الضغوطات الممارسة على الفرد سواء من قبل مؤسسة الأسرة أو المؤسسات التعليمية وصولا إلى المؤسسات السياسية وغيره.

نستخلص مما سبق، الحضور القوي لغرافيتيا المراحيض في المتون الغربية، بيد أن هذا الأمر شبه منعدم _أو منعدم_ في البلدان العربية، خاصة وأنها مازالت في بدايتها البحثية الأولى في موضوع الغرافيتيا عامة.

وبناء على كل ما سبق، هل يجب محاربة هذا النوع من الغرافيتيا؟

جدول رقم (9): محاربة غرافيتيا المراحيض

أوافق جدا	أوافق	أوافق نسبيا	لا أوافق نسبيا	لا أوافق	لا أوافق مطلقا
% 28,7	%11,9	%16,8	%18,8	%12,9	10,9%

من خلال قراءتنا للجدول اعلاه يتبين أن نسبة 57,4% من المبحوثين والمبحوثات يرون أنه يجب محاربة مثل هذه الممارسات، بيد أن النسبة المتبقية أي 42,6% ترى أنه يجب المحافظة عليها، وهذا ما ذهبت إليه طالبة في الدراسات الإنجليزية حيث تقول: "أي شخص حينما يكون في خلوته يمارس ما يريد، وبالتالي فالغرافيتيا الجنسية مثلا حينما تكون في الفضاء العام فإنها تلحق الأذى بالآخرين، عكس وجودها في مكان مغلق كالمراحيض، فوجود مواضيع جنسية في الفضاء العام فيه نوع من قلة الأدب، لأنه يجب احترام الآخرين، وعدم فرض عليهم توجهات معينة، لذا فاحتضان المراحيض لمثل هذه المواضيع أقل ضررا من وجودها في الفضاء العام الذي يجب أن يوظف لغرض جمالي والتعبير عن قضايا هادفة ومشتركة".

3.مواضيع الممارسات الغرافيتية بالفضاء الجامعي

من بين أبرز المواضيع التي جسدتها الغرافيتيا نجد:

المواضيع السياسية

تعتبر الغرافيتيا من الوسائل القادرة على نقل الأفكار السياسية، لأن أفرادها يختارون التعبير عنها في الأماكن العامة، بهدف التأثير في عدد كبير من الناس، ويعتبر بعض المفكرين أن الممارسة الغرافيتيا عمل سياسي بامتياز، لأنها تفصح عن الواقع كما هو.

وضحت الطالبة "ت" من شعبة التاريخ والحضارة إلى أن بروز الغرافيتيا السياسية راجع بالأساس إلى ما يعانيه المجتمع من قمع ونبذ للآراء، الشيء الذي يجعل الشباب يلتجئون لمثل هذه الممارسات للتعبير عن حاجاتهم واهتماماتهم التي لم يستطيعوا الإفصاح عنه في الواقع بشكل علني، لذا يتجهون إلى هذه الطريقة المختصرة لنقد الدولة والسياسة وغيره.

الجدول رقم (10): تدوين المطالب السياسية على الجدار

أوافق جدا	أوافق	أوافق نسبيا	لا أوافق نسبيا	لا أوافق	لا أوافق مطلقا
% 19,8	%27,7	%24,8	%7,9	%12,9	6,9%

من خلال قراءتنا للأرقام المتوصل إليها يبدو أن نسبة 72,3% من العينة المدروسة تراوحت إجابتهم بين أوافق جدا وأوافق نسبيا على كون الغرافيتيا هي وسيلة للتعبير عن القضايا السياسية، يوضح الطالب "ه" من شعبة الجغرافيا ذلك في قوله: " أن الشعب المغربي غالبا ما يذهب إلى الطرق السهلة للتعبير، فهو يختار أن يخرج بالليل ليعبر بطلاقة على الجدار أينما وجد سواء في الأماكن العمومية أو غيره، عكس إذا ذهب لقناة إعلامية أو غيرها فهو لن يتمكن من الحديث عن القضايا السياسية بكل حرية، فهذا الأمر يحتاج للكثير من الجرأة والشجاعة".

الصورة رقم (12): الغرافيتيا السياسية داخل الجامعة

لقد كتبت العبارة باللغة الإنجليزية "Fuck Authority" أي تبا للسلطة، ووضع أسفلها رمز يدل على انتماء المغرفت، وقد كتبت باللون الأسود الغامق وبخط كبير وواضح على جدار باللون الأحمر الغامق أيضا.

ولعل من أكثر المواضيع السياسية انتشارا، تلك المتعلقة بالنضال التي تظهر بشكل جلي أثناء الثورات، ولعل تاريخ الثورات الإنسانية شاهدة على ذلك.

الشكل رقم (5): دور الغرافيتيا النضالية في الحركات

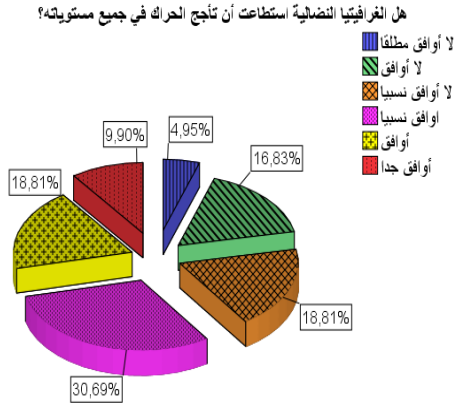

الصورة رقم (13): عبارة نضالية دونت على جدار الكلية

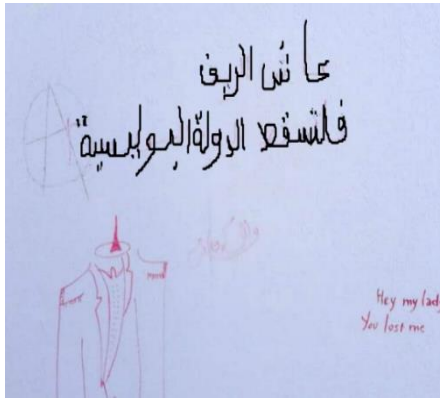

انطلاقا من الأرقام المحصل عليها يبدو أن معظم المبحوثين والمبحوثات يؤكدون على الدور البارز للغرافيتيا في تنامي الحركات الاجتماعية والاحتجاجات، بل ويؤكد طالب من شعبة التاريخ أنها "ضرورية في مثل هذه الأوضاع"، وفي هذا السياق تبرز أهمية الغرافيتيا النضالية، التي تظهر بشكل جلي أثناء الثورات. ولعل تاريخ الثورات الإنسانية شاهد على ذلك، على امتداد التاريخ البشري...خاصة على صعيد الحرب الإسبانية، والثورة الشبابية الفرنسية 1968...والتي عبرت فيها الغرافيتيا عن أهم توجهات الثورة: اجتماعيا وسياسيا وعائليا واقتصاديا... (شراك: 2017، ص146)، بالإضافة إلى ما لعبته من دور شامخ في تأجيج الانتفاضات العربية مثل الانتفاضة في تونس وليبيا وسوريا...يقول مبحوث من شعبة الدراسات الإسلامي أن "الغرافيتيا لعبت دورا مهما في القضية الفلسطينية، فقد دافع من خلالها الشعب الفلسطيني عن قضايا كبرى: اجتماعية وسياسية وغيرها".

انطلاقا من الأرقام المحصلة يبدو أن معظم المبحوثين والمبحوثات يؤكدون على الدور البارز للغرافيتيا في تنامي الحركات الاجتماعية والاحتجاجات، بل ويؤكد طالب من شعبة التاريخ أنها "ضرورية في مثل هذه الأوضاع".

مواضيع حميمية/ جنسية

يبرز هذا النوع من الغرافيتيا بشكل كبير في المراحيض والأماكن الخفية وغير الظاهرة للعامة، وذلك لكونها تتصف بجرأة المواضيع المعبر عنها، وعدم تقبلها من طرف فئة عريضة من الأفراد، فتواجدها داخل هذه لأماكن يضمن استمرارها لمدة أطول عكس الأماكن العامة.

الصورة رقم(15) و(16): حضور الغرافيتيا الجنسية داخل المراحيض

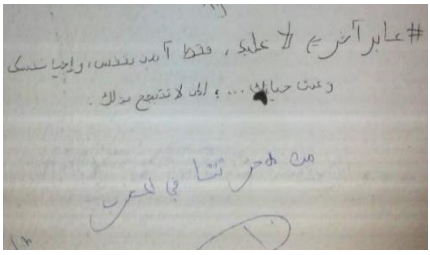

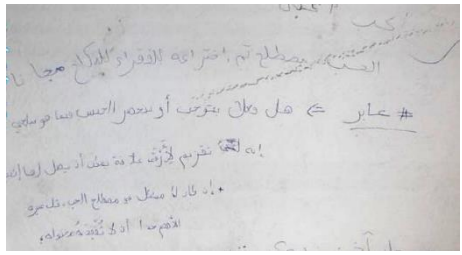

الصورتان تجسدان حوارا مطولا بين عدة أفراد حول موضوع مسألة الحب.

توضح هذه الكتابة الحائطية اللغة البسيطة الغير مشفرة، والتي تتضمن كلاما نابيا أو سبا أو قذفا يَنِمُ عن حقد دفين أو رغبة في الانتقام، كما تلفت انتباهك أحيانا صور خليعة خادشة للذوق العام...إذ نجد ثلاث ثيمات أساسية حاضرة وبقوة داخل هذا النوع من الغرافيتيا تتجلى في: الجنس والجسد والحب، فالأول لأنه عادة ما يعتبر من الطابوهات ،فهو ذاك الخفي الذي لا يجب الحديث عنه بأية طريقة من الطرق، والثاني نظرا لكونه يظل قارة هامشية، رغم الاهتمام البالغ للأفراد تجاهه، والثالث لاعتباره (أي الحب بين الجنسين "أنثى/ ذكر") لازال يكسوه مفهوم الحشمة والعيب والعار...الشيء الذي يجعل المراهق/ة _خاصة_ (على اعتبار أن الحب من أهم سمات المراهقة) يعبر عن هذا الشعور بطرق مختلفة، أبرزها الكتابات والممارسات الغرافيتيا (شراك، 2015، ص 337).

المواضيع الرياضية

تُظهر الكتابات الجدارية في هذه المواضيع الشغب والعنف في المجال الرياضي، فهي تحتوي على اسم فرق كرة القدم، وأسماء يظهر أنها لمناصرين مستعدين لفعل أي شيء بعيدا عن قوانين الرياضة، وأخلاقياتها...إلخ.

الجدول رقم (11): الغرافيتيا وسيلة لمناصرة الفرق الرياضية.

أوافق جدا	أوافق	أوافق نسبيا	لا أوافق نسبيا	لا أوافق	لا أوافق مطلقا
% 7,9	%19,8	%31,7	%15,8	%14,9	9,9%

يتضح من خلال استنطاقنا للأرقام المحصل عليها أن نسبة 59,4% من المبحوثين والمبحوثات تراوحت أجوبتهم بين أوافق جدا وأوافق نسبيا على كون الغرافيتيا تعتبر من بين أبرز الطرق المستعملة لمناصرة الفرق الرياضية، بينما ذهبت النسبة المتبقية عكس ذلك، وتجدر الإشارة إلى كون نسبة 9,9% فقط الذين يرون أن الغرافيتيا ليست وسيلة لمناصرة الفرق الرياضية بشكل مطلق.

الصورة (17): الغرافيتيا الرياضية داخل مرحاض الذكور

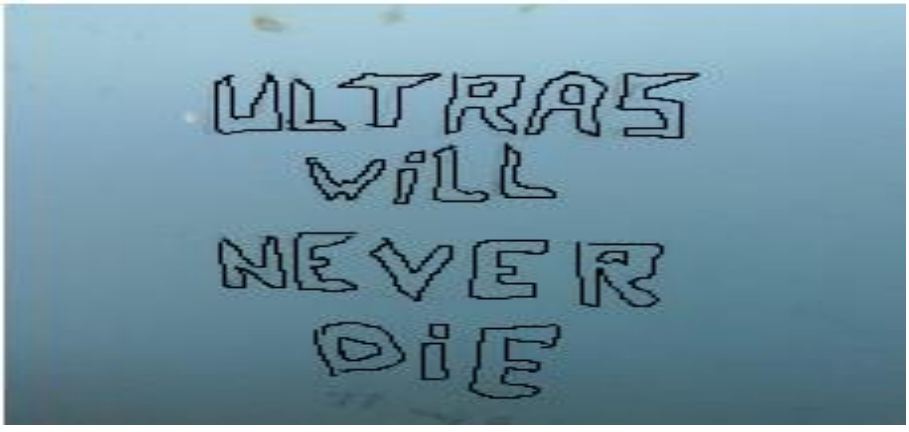

أخذت الصورة من إحدى المراحيض الخاصة بالذكور داخل الجامعة كتب على جدار داخل واحدة من الغرف باللغة الإنجليزية "ULTRAS WILL NEVER DIE" أي "التراس لن تموت أبدا" وقد كتبت بقلم أسود غامق وبخط كبير وملفت.

مواضيع العنف

نلمس مثل هذه الممارسات حاضرة حتى داخل كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، هذا العنف إما أن يبدو من خلال الطريقة المستعملة على مستوى الوسيلة والتقنية أو على مستوى الموضوع أم هما معا، كما أنها إما أن تكون موجهة للعامة، أو لفئة محددة، كما يمكن أن تقصد شخصا ما، وهي يمكن أن تحضر في مكان ظاهر للعموم يتم وضعها بشكل مخفي نظرا لحمولتها، كما أنها تحضر في الأماكن الضيقة، وأيضا داخل المراحيض التي تنتشر فيها بشكل مهم.

صورة رقم (18) و(19): غرافيتيا العنف من داخل مرحاض الذكور والاناث.

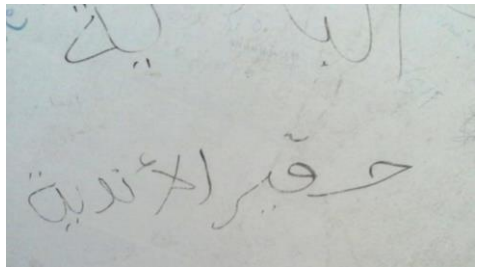

العنف في الصورة الأولى يتجلى من خلال مضمون هذه الغرفتة "حقير الأندية" والتي جاءت بصيغة المفرد، مما يدل على أنها موجهة لفرد بعينه، بينما يتمظهر العنف في الصورة الثانية من خلال الوسيلة المستعملة وطريقة الغرفتة.

4.الغرافيتيا والثقافة الطلابية

يعتبر مفهوم "الثقافة الطلابية" من أبرز المفاهيم المُهَندسة للفضاء الجامعي، وقد درس من طرف العديد من علماء الاجتماع، على نحو "هاورد بيكر Howard Becker" و"بلاش جير

Blanche Geer" و"أنسلام ستروس Anselm Lo Strauss"، وغيرهم من رواد مدرسة شيكاغو العريقة، دون تجاوز أبحاث بيار بورديو P Bourdieu وكلود باسرونPasseron.

تتشكل "الثقافة الطلابية" حسب Howard Saul Becker نتيجة الصراع الكامن بين جماعة الأساتذة والإداريين مع جماعة الطلبة، وكرد فعل لأنماط التكيف مع ضغوطات وإكراهات المسار الدراسي، ولاحظ الباحث أن الطلبة من خلال تفاعلهم الدراسي شكلوا قيم ومفاهيم مشتركة، كرد فعل على طبيعة الأوضاع المُعاشَة، ولتحقيق أهدافهم المنشودة، مما شكل نوع من "التوافق العملي". وهذا ما ولد لديهم تصورات وتمثلات قعدت لهويتهم الثقافية المتميزة، والتي يعرفها بيكر Becker بأنها "مجموع التصورات المشتركة بين الطلبة حول مشاكل وصعوبات وإكراهات التمدرس، بالإضافة لكل الأسئلة المرتبطة بحرية حِفظ المظهر (اللوك Le look)، وكيفية انتقاء اللباس...إلخ" (بوعلام، 2013-2012، ص115).

فقد أصبحت الغرافيتيا تجسد نوعا من الثقافة التي تتميز بالرفض والنقد لكل ما هو مؤسساتي، فهي أصبحت جزء لا يتجزأ من الحياة الطلابية، وانطلاقا من هذا هل يمكن للغرافيتيا أن تجسد المستوى الثقافي للطالب الجامعي اليوم؟

جدول رقم(12): مدى تجسيد الغرافيتيا للمستوى الثقافي للطالب(ة)

أوافق جدا	أوافق	أوافق نسبيا	لا أوافق نسبيا	لا أوافق	لا أوافق مطلقا
% 13,9	%23,8	%19،8	%11،9	%18,8	11,9%

نلمس من خلال إجابات المبحوثين والمبحوثات أقروا بكون الغرافيتيا تعكس المستوى الثقافي للطالب(ة)، إذ شكلت نسبة هؤلاء 57,5% تراوحت أجوبتهم بين أوافق جدا وأوافق نسبيا، في حين ذهبت النسبة المتبقية عكس ذلك.

صرح الطالب "و" من شعبة الفلسفة أن الجامعة تعتبر الفضاء الرحب للممارسات الغرافيتية، لأنها تجمع بين طياتها العديد من الثقافات، والتباينات سواء على مستور الانتماء الديني أو اللغة أو

التفاوت في الأعمار أو الانتماءات الإيديولوجيا...الشيء الذي يجعل الغرافيتيا في الجامعة تتنوع وتأخذ عدة أشكال تعبر عن هذه الاختلافات، بيد أن الطالب "ب" من نفس الشعبة يرى أن الجامعة ليست مسؤولة عن بروز هذه الممارسات، لأن هذه الفترة _غالبا_ تعد انتقالية بالنسبة للطالب، ينتقل فيها من مرحلة المراهقة إلى مرحلة النضج الفكري، وبالتالي فالجامعة تكون فضاء لتفريغ كل تلك الأمور التي ترسبت بداخل الفرد. فهل الغرافيتيا تشكل خطرا على الحرم الجامعي؟

الشكل رقم (7): خطر الغرافيتيا على الجامعة

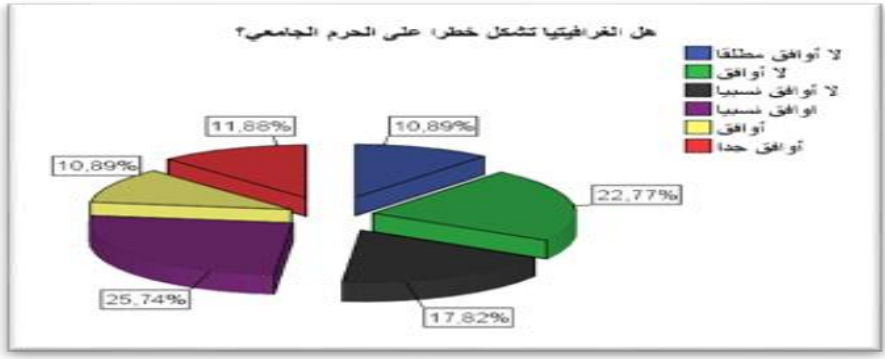

يبدو أن الإجابات السالفة انشطرت إلى قسمين متقاربين، حيث شكلت نسبة 51,48% منها موقفا انزاح إلى كون الغرافيتيا لا تشكل خطرا على المؤسسة الجامعية وحرمتها، بينما النسبة المتبقية تراوحت أجوبتها بين أوافق جدا وأوافق نسبيا.

فمن كل هذه المنطلقات، هل يمكن تحديد نوعية الثقافة التي تتميز بها الفئة الطلابية خاصة داخل الكلية المدروسة انطلاقا من أنواع الغرافيتيات ومن تلك الكتابات والممارسات التي تنتشر بمختلف نواحي الكلية، بداية من أصغر حامل إلى أكبرها التي تأخذ مساحة الجدار بالكامل، حيث تتجسد الأولى خاصة في غرافيتيا الغش وكذا غرافيتيا الأسماء والحروف، بينما تتمظهر الثانية في الغرافيتيا النضالية وغيره.

غرافيتيا التحراز (الغش)

الشكل رقم(8): غرافيتيا الغش وتدني مستوى الطالب/ة

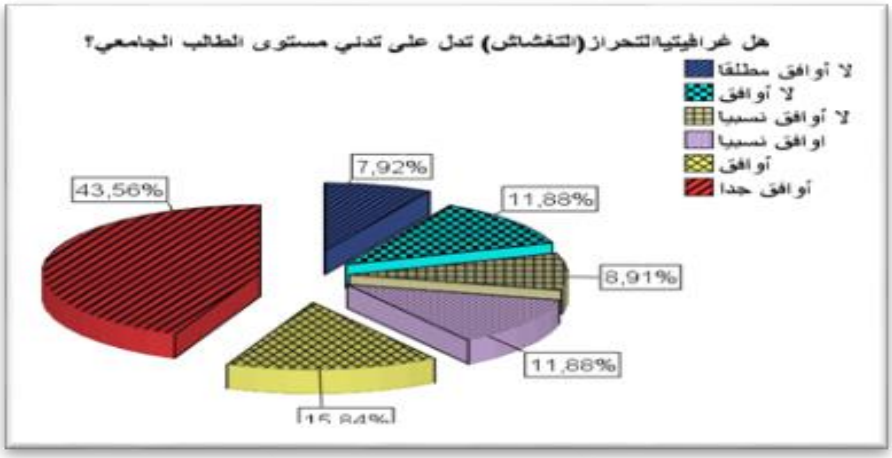

بعد تفحصنا للأرقام المحصل عليها، يظهر أن معظم الطلبة أقروا على أن غرافيتيا الغش تعكس تدني مستوى الطالب/ة الجامعي/ة، إذ شكلت نسبة الإجابات بأوافق جدا أعلى نسبة 43,6%. فهل يجب محاربة هذا النوع من الغرافيتيا؟

الجدول رقم (13): محاربة غرافيتيا الغش

أوافق جدا	أوافق	أوافق نسبيا	لا أوافق نسبيا	لا أوافق	لا أوافق مطلقا
23,8%	%11,9	17،8%	%13,9	%15,8	%16،8

يبدو جليا من خلال الجدول أن نسبة أغلب المبحوثين والمبحوثات أكدوا على ضرورة محاربة هذا النوع من الغرافيتيا، التي تعطي انطباعا سيء حول هذه الفئة، التي غالبا ما تعرف بالفئة المثقفة أو المنتظر أن تكون كذلك، في حين شكلت نسبة 16,8% من العينة المختارة موقفا مضادا للقضاء على غرافيتيا التحراز.

الغرافيتيا النضالية

هي الأخرى تحتل حيزا مهما داخل الجامعة، مما يجعلها جزء من الثقافة الطلابية، فحسب مستجوب من شعبة التاريخ والحضارة، يؤكد على ضرورة أن يكون الطالب الجامعي ملماً بالقضايا التي تحدث داخل الجامعة والمجتمع عامة، بل ويقول: "يجب نقل هذه القضايا إلى الفضاء الجامعي الذي لابد أن يستقبل كل القضايا المجتمعية، ويعبر (الطالب/ة) عنها داخله ويدافع أو ينتقد هذه القضايا". فهل الغرافيتيا النضالية تدل على مستوى الوعي الطلابي؟

الشكل رقم (9): الغرافيتيا النضالية والوعي الطلابي

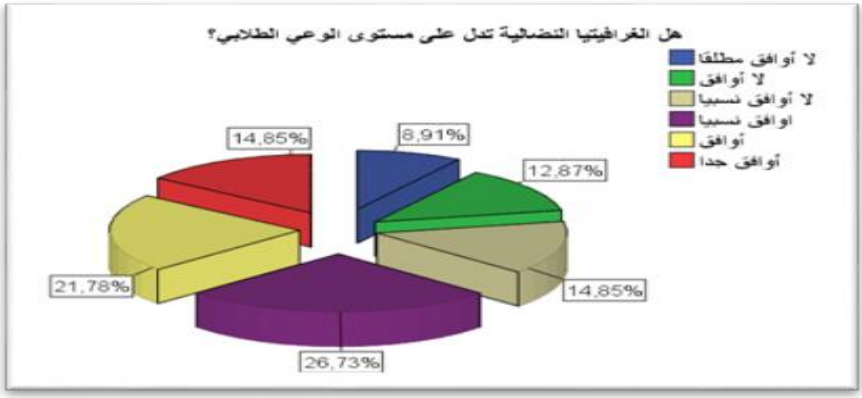

من خلال استظهارنا للأرقام المحصل عليها يبدو أن نسبة 63,36% تراوحت إجابتهم/ن بين أوافق جدا وأوافق نسبيا على كون الغرافيتيا النضالية تدل على تدني مستوى الوعي الطلابي، بينما تراوحت النسبة المتبقية إجابتهم بين لا أوافق نسبيا ولا أوافق مطلقا.

ومنه، فالثقافة الطلابية هي خليط من القيم والمعايير والسلوكات والتصورات والحركات وردود الأفعال التي تتصف بها الفئة الطلابية، وتميزها عن باقي الفئات الاجتماعية الأخرى. تتشكل من خلال التفاعل اليومي بين الطلبة داخل الفضاء الجامعي، إذ بولوج الطالب/ة الفضاء المذكور يكون قد ولج عالما جديدا بجدة فاعليه وثقافته الخاصة، وبجدة معالمه ومعاييره التنشئوية ومرجعياته الهوياتية، مما يضطره للبحث عن كيفية التأقلم مع هذا الوسط، فيفرز علاقات اجتماعية جديدة مختلفة من حيث الأسس والركائز عن سابقاتها (الإعدادية والثانوية).

النتائج المتوصل إليها

من خلال دراستنا _الثقافة الطلابية_ نستنتج أن:

-تنامي ظاهرة الغرافيتيا يعكس وجود ثقافة طلابية سمتها الأساس هي الثورة على كل القيم المجتمعية.

-الغرافيتيا مازالت تعتبر كخطاب هامشي يجب أن يظل على هامش المؤسسة وفي نواحيها ولا تحظى بأية أهمية داخل ووسط هذه المؤسسة.

-الغرافيتيا تعتبر من أبرز وسائل التعبير عن الذات الفردية والجماعية على حد سواء، وذلك في ظل غياب قنوات أخرى سواء إعلامية أو أنشطة ونوادي تواصلية وغيره يفصح فيه الشاب والشابة عن كل ما يخالجه.

-من أهم المضامين الغرافيتية المتواجدة بالفضاء الجامعي يوجد: غرافيتيا التحراز والغرافيتيا النضالية وغرافيتيا الجنس والتعبير عن المشاعر والعلاقات العاطفية، هذه الأخيرة التي تسود بشكل كبير داخل المراحيض، مما يدل على وجود كبت يمارس على هذه الفئة من طرف المجتمع وقمع لآرائهم.

خاتمة

أصبحت الغرافيتيا ممارسة يومية تغزو مختلف الأماكن المجتمعية، يلجأ إليها الأفراد لأهداف مختلفة تشترك في التعبير عما يخالجهم من أفكار وايديولوجيات، فهذه الممارسات غالبا ما تعكس الظروف الاجتماعية للأفراد والخصائص والصفات المميزة للمجتمع المحتضن لمثل هذه الممارسات، كما قد تعكس قضايا دولية كبرى. وقد عرفت ازدهاراً كبيراً أثناء الأزمات والحروب والانتفاضات والاحتجاجات، حيث كانت المحرك المساهم في هذه السيرورة، فهي التي أَلْهَبَتْ العديد من الثورات بالبلدان العربية، على نحو: تونس، مصر، اليمن، البحرين، الجزائر...إلخ (بوعلام، 2013-2012، ص93). فالغرافيتيا بالمجتمعات العربية تكتسب قيمةً وبعداً رمزياً مهماً، باعتبارها "مرآة من نوع خاص"، تعكس الواقع المجتمعي، وتكشف وجهه الخفي والمضمر.

فالغرافيتا داخل الجامعة تأخذ أبعاداً متعددة، إذ نجدها تحتضن مواضيع مختلف، تنمُ عن التنوع الثقافي والإيديولوجيا من داخل هذا الفضاء؛ كالمواضيع النضالية والسياسية، والمواضيع الجنسية الحميمية، بالإضافة إلى المواضيع الرياضية وغيره، التي تعكس طبيعة الاهتمامات الطلابية، وكذا الضغط الممارس عليهم والمنع من التعبير عن عدد من القضايا التي تجد في الغرافيتيا متنفساً للتعبير الحر وبدون قيود، وبالمعدات والوسائل المختارة من طرف هذه الفئة.

لا تقتصر الغرافيتيا داخل الفضاء الجامعي على مكان محدد دون غيره، بل إنها تغزو مختلف الأماكن سواء الهامشية أو الرئيسية؛ مثل: المراحيض، الأماكن الخلفية للمراحيض والقاعات، داخل المدرجات والقاعات، الممرات الرئيسية، قاعة المطالعة...إلخ. وتجدر الإشارة إلى أن المواضيع المعبر عنها من طرف الطلبة تختلف من مكان لآخر، كما قد نجد مكان مخصص لنوع معين من الغرافيتيا.

وفي الختام، تعد الغرافيتيا الطلابية تجسيداً للدينامية المجتمعية عامة والجامعية خاصة، إنها تجسد واقع الحال، وتعبر عن المشكلات المجتمعية، وتنقل همومه، ليصبح الفضاء الجامعي مجتمعاً مصغراً تجتمع فيه كل القضايا الوطنية والعربية والدولية.

قائمة المراجع:

1.بوعلام، باي. (2012). الوظيفة الأخرى للطاولة التعليمية مقاربة سوسيولوجية لظاهرة "الكتابات الغرافيتية". مجلة الواحات للبحوث والدراسات، العدد الخامس، رقم2، ص81-98.

2.بوعلام، باي. (2014). فعالية "الغرافيتيا النضالية" في "التعبئة الهوياتية" خلال العهد الاستعماري الجزائر نموذجا. مجلة الانسان والمجتمع، العدد الثامن، ص21-35.

3.بوعلام، باي. (2012- 2013). هوية الطالب الجامعي من خلال الكتابات الغرافيتية جامعة تلمسان نموذجا. أطروحة دكتوراه في علم الاجتماع.

4.بوعلام، باي. (2018). قصور الاجتهادات العالمية للحد كم ظاهرة الغرافيتي بالفضاءات الحضرية. مجلة العلوم الاجتماعية – المركز الديمقراطي العربي المانيا–برلين،العدد .

5.الزيباري، طاهر حسو. (2011). أساليب البحث العلمي في علم الاجتماع. مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت.

6.شراك، أحمد. (2004). أسئلة الغرافيتيا من الدلالات الى الخطاب (مدخل سوسيولوجي). مجلة الموقف الادبي، العدد 395.

7.شراك، احمد. (2015). الغرافيتيا او الخربشات العربية على الحيطان (مقدمات في سوسيولوجيا الهامش والثورة). روافد للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثانية.

8.شراك، احمد. (2017). سوسيولوجيا الربيع العربي او الثورات التأسيسية. مقاربات للنشر والصناعات الثقافية، فاس.

9.العطري، عبد الرحيم. (2000). دفاعا عن السوسيولوجيا. شركة بابل للطباعة والنشر والتوزيع، المغرب.

10.القرني، محمد مصفر. (2008). منهج البحث الكيفي والخدمة الاجتماعية العيادية، دراسة نظرية، جامعة أم القرى.

11.Snyder, G. J. (2011). Graffiti lives: Beyond the tag in New York's urban underground (Vol. 21). NYU Press.

12.Tournier, Maurice. (2007). Les mots de mai 68. Presses universitaires du Mirail, Toulouse.